

الإجرام في مصر

لحضرة صاحب العزة محمد الباي بك

مدير كلية البوليس الملكية

لقد أصبحت جريمة القتل العمد في الريف المصرى ، يحكم كثرة وقوعها ، أمرا عاديا الى درجة أنها أضحت لا تثير اهتماما خاصا لا في الصحف ولا في أوساط الجمهور . فبينما نرى أن جريمة القتل في إنجلترا مثلا ، مهما بُعد مكان ارتكابها ، ما زالت تحتل مكانا ممتازا في الصحف الكبرى ، مصورة في شكل بارز ومشقوعة بعبارات وأوصاف لائنة للانظار ، نجد أن نظيرتها في مصر لا تنال مثل هذا الاهتمام في الصحف ما لم تكن تشتمل على ناحية ذات شأن خاص . ويمكن أن يقال مثل ذلك عن جمهور القرويين ، الذين أخشى أن يكون الكثيرون منهم أكثر اهتماما بما يبدو على الموكب المؤلف من رجال التحقيق وقوات البوليس من مظاهر خلافة . ونحن إذا رجعنا الى الاحصاءات الجنائية — وهى تعطينا ملسوبا ثابتا تقريبا في خلال السبع السنوات الأخيرة — نصل الى النتائج الآتية :

أولا — ان جرائم القتل عمدا بدافع الانتقام تكون العنصر الغالب في الإجرام المصرى بصفة عامة .

ثانيا — ان الجانب الأكبر من تلك الجرائم يرتكب في الريف . ولو كان أمامنا رسم بيانى لاتضحنت منه السبب الآتية :

(أ) ان نسبة تبلغ ٧٤٪ من مجموع الإجرام الجنائى ، سواء أكان مرتكبا ضد النفس أو المال ، ترتكب بدافع الانتقام . ويقابل ذلك في إنجلترا نسبة تبلغ ٤٪ .

(ب) ان نسبة تبلغ ٨٠٪ من مجموع ما يرتكب من الاجرام الجنائى في الريف المصرى ترتكب بدافع الانتقام بينما ترتكب منه نسبة ١٨٪ لأسباب مادية و ٢٪ لأسباب خلقية .

(ج) ان مجموع جرائم القتل العمد والشرع فيه تكون نسبة ٣٩٪ من مجموع الإجرام الجنائى بالقطر بينما ترتفع هذه النسبة الى ٥٣٪ من مجموع الإجرام الجنائى الذى يرتكب بدافع الانتقام . وهذه النسبة عنها ترتفع في الوجه القبلى

الى ٥٤٪ بينما تهبط في الوجه البحرى الى ٣٥٪ تقريبا وذلك على الرغم من أن تعداد السكان في الوجه البحرى يزيد عليه في الوجه القبلى .

(د) ان نسبة تبلغ ٨٩٪ من جنايات القتل العمد والشروع فيه ترتكب في الريف . كذلك يتضح من الاحصاءات الجنائية نتائج أخرى منها :

١ — ان نسبة ٧٠٪ من جنايات القتل العمد والشروع فيه ترتكب مع التردد أو سبق الاصرار وأن ٦٧٪ من هذا النوع الأخير يرتكب لئلا يلنا أن ٦١٪ منه ترتكب في المزارع خارج مساكن القرية .

٢ — ان نسبة ٧٠٪ أيضا من جنايات القتل العمد والشروع فيه ترتكب بواسطة الأسلحة النارية بينما ترتفع هذه النسبة الى ٩٠٪ تقريبا في الجنايات المصحوبة بالتردد أو سبق الاصرار .

أما فيما يختص بالنسبة الى عدد السكان فانه يتضح أن هناك ٢٢٤ جناية قتل أو الشروع في قتل عمدا مقابل كل مليون من السكان بينما يعادل هذا الرقم في إنجلترا ٥ جنايات لكل مليون من الأهالى .

وأخيرا فيما يتعلق بنسبة الإجرام الى الزمن نجد أن المتوسط يكاد يبلغ على وجه التقريب جناية في الساعة الواحدة ، وجناية قتل أو شروع في قتل في كل ثلاث ساعات .

على أنى قبل أن أنتقل من هذه النقطة أود أن أحذر القراء من الاحصاءات الجنائية فانها ، على الرغم مما هو مسلم به من أنها خطوة لازمة لدراسة الإجرام ، كثيرا ما تخدع الباحث ، بحيث إن من الخطأ البين أن يسارع الانسان الى استنتاج النتائج من أرقامها المجردة قبل أن يكمل بحثه بدراسة وافية لكافة العوامل المختلفة التى تسبب الإجرام فمن المعروف أن الاحصاءات الجنائية فيها عيبان أساسيان أولهما أنها شديدة المرونة والثانى أنها مضللة في كثير من الأحيان ومأزب بعض الأمثلة على ذلك .

فأما من حيث مرونتها فان من المدهش حقا أن نرى الاحصاءات قابلة لأن تلتوى ذات اليمين وذات الشمال بسهولة كثيرا ما جعلتها تصلح أساسا لرأين متناقضين في وقت واحد . ولقد صدق أحد الباحثين حيث قال إنك لتستطيع أن تصنع من الاحصاءات كل ما يعجبك فمن منضدة مربعة الشكل الى زوج من الحمامات ، وهاكم مثلا واحدا وهو خيالى محض يوضح كيف أن كلا من القصد والزيادة في الإجرام يمكن أن يستخدم كلاهما لإثبات أمر واحد بعينه .

لنفرض أنى قصدت في زمن غابر مديرا لأحد الأقاليم وقلت له إن هناك نقصا محسوسا في رقم الجرائم في مركز معين فإنك قد تراه وقد انبسطت أساريه وأجابك في ابتسامة الثقة

ان ذلك يرجع الى ما بذله من مجهود واتخذ من إجراءات كان لها الفضل في استتباب الأمن في ذلك المركز ، فاذا ما عثبت بقولى إن الأرقام تدل على ازدياد كبير في المركز المجاور فأنى قد لا أسبب له بذلك أى ارتباك ، بل قد أراء على العكس وقد أجاب في ابتسامه أكثر ثقة واطمئنانا أن هذه الزيادة إنما ترجع الى كفاية رجاله الذين تمكنوا بفضل جهودهم من كشف خفايا الكثير من الجرائم الدفينة الأمر الذى أدى الى اكتسابه لثقة الجمهور فأقبل الناس عليهم يلقونهم من الحوادث ما كانوا من قبل يفضلون إبقاءه في طي الكتمان .

أما من حيث كونها مضللة فإن المشاهد أن الإحصاءات كثيرا ما تصور لنا فكرة خاطئة عن المقدار الحقيقي للإجرام إذ أنها تنقل على الدوام ذكر الحوادث النابجة تلك التى لا يدرى أحد عنها شيئا وتنقل أيضا الحوادث التى قد يعلم الناس بها ولكن لا يصل علمها الى البوليس لسبب من الأسباب الكثيرة كاستناع المجنى عليه أو الشاهد عن التبليغ عجزا منه أو خوفا أو إشفافا على الجاني أو رغبة في الانتقام قصاصا ولا شك أن مثل هذه الحالات تؤلف جانباً كبيراً من الإجرام .

ولا يقتصر تشليل الإحصاءات على مقدار الإجرام بل هو يمتد حتى الى نوعه فكثيراً ما يصور خطورة الجريمة أو أهميتها تصويراً خاطئاً فالأم المهيجورة التى تلجأ رغماً عنها وخوفاً من النضيجة الى التخلص من مولودها تعتبر في نظر الإحصاء الجنائى مرتكبة لجناية خطيرة جداً عقابها الإعدام ، واللص الذى يقتحر في منتصف الليل منزلاً مسكوناً بطريق تسلق السور أو كسر الباب أو غير ذلك وهو مدجج بالسلاح من قلة رأسه الى أخمص قدمه قد لا يرتكب في نظر القانون ، إلا جناية بنينا السائق الطائش الذى يعتبر بحق خطراً مهدداً لأمن الناس وأرواحهم لا يزيد عمله على مخالفة نافهة ، بل قد لا يكون فيه جريمة على الإطلاق ، بل أن الإحصاء قد يخذعنا حتى في بيان نسبة الإجرام الى تعداد السكان ما لم نجعل نصب أعيننا حقيقة واقعة هى أن أرقام الإحصاء لا تشير الى عدد الجرائم ذاتها أو الى عدد المجرمين بل الى عدد القضايا في حين أن القضية الواحدة قد تشمل على أكثر من جريمة واحدة أو مجرم واحد .

على أن الإحصاءات الجنائية على الرغم من عيوبها ما زالت تعتبر الأساس الذى ينبغى أن يبنى عليه كل درس صحيح لأسباب الإجرام .

الأسباب - والآن وقد وصلنا للكلام عن الأسباب ، علينا أن نسأل أنفسنا ، لماذا أصبح

القتل ذائعا في الريف المصرى الى هذا الحد ؟

لقد ظهر لنا من الإحصاء أن الانتقام وهو العامل المتغلب في الإجرام المصرى بوجه عام وفي القتل العمد بوجه خاص عامل يرجع الى العاطفة والشعور لا الى حب المادة ، وظهر

من الإحصاء أيضا أن ذلك العامل عامل الانتقام أشد ظهورا في الوجه القبلي عنه في الوجه البحرى، بل أنه أكثر رجوحا حتى في الأقاليم الحيوية الجنوبية من الوجه القبلي كأسيوط وقنا عنه في الأقاليم الشمالية، وقد لوحظ مثل ذلك تماما في الإحصاءات الخاصة بالقارة الأوروبية حيث ترى الإجرام أرجح كثرة في الممالك والبلاد الجنوبية منه في البلاد الشمالية، بل وفي المناطق الجنوبية من دولة بعينها فهل يستنتج من هذا أن طقس المناطق الحارة له أثره في ازدياد الإجرام الانتقامى ؟ يظهر أن معظم علماء الإجرام يرون هذا الرأي .

ولقد ظهر من الإحصاءات أيضا أمر آخر فيه تأييد للحجة المتقدم ذكرها وهو أن الإجرام الانتقامى بما في ذلك القتل يزداد مقداره في الفصول الدافئة من السنة ونحن لو ألقينا نظرة الى هذا الإحصاء لوجدنا أن خط سير الرقم الخاص بالإجرام الجنائى فى مجموع (وعلى متواله تماما الرقم الخاص بالقتل والشروع فيه) كلاهما يرتفع فى فصول الحار ويهبط فى فصول البرد وأنه يواظب على هذا التقلب بطريقة منتظمة وفى مدى خمس سنوات متوالية دون أى شذوذ حتى أنه يشبه فى تقلباته أسان المشط ، على أن هذا التقلب لا يرجع الى العوامل الجوية وحدها فهناك عوامل أخرى كثيرة يتصادف أن تجتمع دائما فى خلال الفصول الدافئة والحارة من السنة فزراعات الذرة التى تقع على جانبي الطرق الزراعية تهبط للقاتل فرصة نادرة ليكن لغريمه ثم يفر هاربا بعد ذلك دون عناء ، والأجرام حيث تجمع الحاصلات الصيفية لدراساتها وحيث قد اعتاد الكثير من الفلاحين أن يناموا فيها بقصد حراستها وهم فى الواقع لا يلبثون أن يستغرقوا فى سبات عميق وإلى جانبهم سلاحهم الدارى من شأنها أن تسهل للجانى ارتكاب جانيته، ونظام المناوبات الصيفية لتوزيع مياه الري أيام الحفاف معروف عنه أنه مصدر لكثير من المنازعات وأسباب الشجار والقتل، ثم عادة الفلاح فى الخروج من منزله هربا من حرارة الجولينام أمام داره على المصطبة . كل هذه الأسباب مجتمعة أو منفردة تساعد على تعليل الظاهرة المتقدم ذكرها .

وهناك أمر آخر تظاهرة الإحصاءات ذلك أن الإجرام الانتقامى أكثر انتشارا فى الريف منه فى المدن الكبرى، ففى المدن نجد الإجرام معظمه من النوع المادى بل أن جانباً من الإجرام الانتقامى الواقع فى المدينة يعتبر فى واقع الأمر ريفيا . ذلك لأن ارتكابه ينسب الى المهاجرين من الوجه القبلي والذين يختارون تصفية منازعاتهم فى المدينة فى خلال اقامتهم بها للقيام بأعمال المقاولات أو للبحث عن عمل . فهل هذه الظاهرة الأخيرة تدل على أن تأخر الحضارة له دخل فى الإجرام ؟

إن من المسائل المقررة أن الإجرام كلما اقترب من المدينة اتخذ اتجاها أبعد من العاطفة والانفعال وأقرب الى الطمع فى المسادة . غير أن ذلك لا يدل على تغيير الى حال أحسن بل ولا على تناقص فى مقدار الإجرام، وكل ما يدل عليه هو أن الإجرام يصبح أكثر عنفاً وغلظة

وقسوة ولكنه في نفس الوقت يكون أقرب الى المكروالؤم والخداع، بل والانحطاط الخلقى، بل لقد ذهب بعض كبار الباحثين الى أن انعدام الحضارة بتاتا ليس سببا من أسباب الاجرام. فقد جاء في كتاب العلامة (و.د.) موريسون عن الاجرام وأسبابه صفحة ٣٦ ما يلى:

”يقول المسترسل ولاس في هذا الصدد: لقد أقيمت بين الزوج المتوحشين في جنوب أمريكا وفي الشرق حيث لا قوانين ولا محاكم فيما عدا محكمة الرأى العام فكان كل واحد من الأهالى يكتف كل الإحترام لحقوق رفقاءه وكان الاعتداء على أى حق من تلك الحقوق أمرا نادر الوقوع ان لم يكن معدوما تماما. ويشير المستر ”هريبرت سبنسر“ الى كثير من الأمثلة على ما تتصف به الشعوب المتوحشة من صفات الرحمة والوداعة والاعتدال والأمانة واحترام حقوق الغير وكذلك الدلالة ”م دى. كاترفاج“ فانه بعد أن نلخص المميزات الخلقية للأصناف المختلفة من الأجناس البشرية انتهى الى القول بأنه من الناحية الأدبية لا يرى أن المجلس الأبيض يمتاز على المجلس الأسود بشيء يذكر وأن المدنية قد خلقت من الرذائل بقدر ما أوجدت من الفضائل وأن الشخص الذى يزعم أنها قد قلت من كمية الإجرام لشخص جرى“.

لهذا نسائل أنفسنا ما الذى حدا بالفلاح على أن يقدم على ارتكاب الجنايات الدموية لينتقم لنفسه؟ وهل يرجع هذا الى أنه من النوع الذى يطلق عليه العلماء عبارة ”المجرم بطبعه أو بحكم الوراثة؟“ كلا من غير شك. فالفلاح المصرى على العكس من ذلك يعتبر من خير فلاحي العالم طيبة وهدوءا، بل هو شخص لطيف المعشر حاضر الفكاهة وهو فوق ذلك شديد التمسك بدينه مدرك أنه يحرم الإجرام. ومن جهة أخرى فان النظرية الإيطالية القديمة التى كانت تقول بأن هناك أناسا خلقوا مجرمين لأنهم يرثون من الخواص الإجرامية ماتبدو آثاره على أجسامهم فى علامات ظاهرة قد اتضح أخيرا أنها إنما بنيت على وهم. أو كما يقول العلامة السير ايفلين راجلز برايز ”خرافة“ وطالما أوردت هذه النظرية الكثير من المخافات عن أمثال تلك العلامات فيما يسمونهم بالمجرمين الوراثيين كأنخفاض فى الجبهة أو كثافة فى الحواجب أو بروز فى الأذان أو ما شاكل ذلك. وفى اعتقادى — وفى استطاعتكم أن تلاحظوا بأنفسكم أن آرائى الشخصية فى هذا الصدد قد لا تكون مفرجة عن التحيز — اننا لو أعطنا لشخص أن يستعرض أمامه كل من تضمهم جدران أحد الليانات مثلا بعد أن يصطقفوا فى لباس متشابه هو رداء المسجونين ليختار منهم من تنطبق عليه الأوصاف المتقدم ذكرها لما كان من غير المحتمل أن تكون أول مجموعة يستخرجها من بينهم تشتمل على مدير الليان نفسه.

كلا انى أعتقد أن تعلق الفلاح الشديد بأسباب الانتقام إنما يرجع لتقاليد العتيقة المبنية على روح الحماسة والفروسية القديمة وهى التى استقلت إليه من جيل الى جيل من البدو من أيام الفتح العربى والتى صادفت هوى فى نفوس الفلاحين وبخاصة غريزتهم الكفاحية تلك الغريزة التى هى أكثر ظهورا فى الذكر . فبينما نجد أن أبرز غريزة فى المرأة هى غريزة الأمومة نرى أن الغريزة الغالبة فى الرجل ليست بغريزة الأبوة وإنما غريزة الكفاح والعراك . وبينما نرى أن الدمية تستهوى قلب الطفلة الصغيرة نرى أن الصبي الصغير يملك قلبه حصان أو سيف أو غير ذلك من أسلحة القتال وإنى ما زلت أذكر الى اليوم بائع الحلوى الذى كان يحول فى أركة قريتنا يصبح مناديا على سلعته "حصان للولد وعروس للبت" وفى ظنى أن هذا الرجل قد خلق عالم من علماء النفس .

ولقد مرت قرون عدة ساعد فيها الجهل وما يصاحبه من خواص أخرى على تمهيد عقول الفلاحين البسطاء لتنمو فيها تقاليد النار وتمتد جذورها حتى أصبح تعلق الفلاح بواجب الأخذ بشأه يكاد لا يقل عن تمسكه بعقيدته الدينية . فالفلاح كان وما زال الى اليوم يعتقد أن من الرجولة أن يقتص لنفسه بنفسه وأن من الضعف والجهن أن يشكو أمره إلى غيره ولو كان ذلك الغير الهيئة الحاكمة نفسها وأن من البطولة بل من الوطنية الحققة أن ينتقم لشرفه المثلوم . وهذا هو السر فى أنه لا يحس فى نفسه عجلا أو عارا إذا ما اتهم أو عرقب من أجل تلك التهمة التى كثيرا ما يعترف بها مباهاة فخورا . وهذا هو السر أيضا فى أن أهل بلده يستقبلونه وهو عائد من السجن بالدف والطبول ، وهذا هو السر فى أن الكثير من جنایات القتل لا يصل أمرها إلى الحكومة لأن أهل القتل قد اعترموا النار لأنفسهم ، وهذا هو السر فى أن كثيرا من الجنایات التى أبلغت وتم تحقيقها ينتهى أمرها بالفشل لأن الشهود فيها يجمعون عن الشهادة ليس دائما عن عدم اكتراث أو عن جبن أو خوف بل عن عطف على القاتل الذى قدّم لئلا الدليل على رجولته وشهامته بأن غسل عاره وآره فى دم غريمه . ولقد اشتهر عن العرب الذين طالما عرفوا بالبسالة والشجاعة واتقان ضروب الفروسية أنهم نخرون بتار يخهم معترون به حتى لقد أنشأوا عن أبطالهم وفرسانهم أسطورة هائلة صاغوها فى سيل كبير من النظم والنثر وأخذوا يتبارون فى التغنى بها وإنشادها فى مجتمعاتهم وأسواقهم ، فلما قدموا إلى مصر نقل عنهم المصريون دينهم ولغتهم ولباسهم ثم ما لبثت تقاليد النار عندهم (ومعناه النفس بالنفس والعين بالعين والسن بالسن) أن انتشرت كالنار فى الحشيم بين الفلاحين الذين أقبلوا مثلهم على اعتناقه واتباعه بكل ما اشتمل عليه من تعاليم كان من أهمها التضامن العائلى والضبط الطويل والكتمان والتأمر ، وإنى لأقتبس للتعثيل على ذلك جانباً من ترجمة قصيدة نشرها الأستاذ "أ. و. لين" فى كتاب مصر الحديثة من حوالى أكثر من قرن ، قال يروى على لسان خضرة مخاطبة ولدها أبى زيد الحلالى عندما سألها عن مـرولادته ، صفحة ٤٠٣ .

”فليساعدك الله يا ولدى لتأخذ بئارك ، وتحب نبيج حتى هلال ولكن عليك أن تكتم تماما ما قصصته عليك فلا تذكره لمخلوق ، لئلا يغضب عمك ، فاعتصم بالصبر وانتظر حتى تنال ما تشتهي من رغبة في الانقسام “ . قلت إن الفلاحين قد سارعوا إلى تلبية نداء انثار المقدس ، بل لقد عرف عنهم أنهم كثيرا ما بزوا فيه أسلافهم العرب فكثيرا ما حدث في القضايا أن فلاحا أخذ بالنار لنفسه بعد أن بقي صابرا سنين طويلة ظل في خلالها يمشي حاسر الرأس حافي القدمين رث الثياب لا يفتسل ولا يقبل في فقيدته عزاء ، وفي الواقع أن شبح النار يظل يلاحق الفلاح من مهدده إلى لحده فهو إذ ينشأ طفلا صنيلا يقن من فم أمه قصة الثأر في عبارات ملتبية تمسها كما كان يفعل أسلافه الأقدمون فذ ما ترعرع وأصبح غلاما أقبل في لحظة إلى الاستماع إلى الكتب العديدة المؤلفة عن أولئك الأبطال وسيم مثل أبو زيد الخلال والوزير سالم وعزته العيسى ويصف ابن ذى زن أو على التفرج على نوع من أنواع التسلية الحديثة العهد نوعا ما وتسمى ”صندوق العجب“ أو ”صندوق الدنيا“ حيث يجلس الغلام يستعرض من خلال منظار مكبر صورا خيالية لأولئك الأبطال يمزجون أمامه مجسمين في شكل خلاب بينما يقوم المخرج بالتفسير في صوت موسيقى يشير الحماس والاعجاب ، فإذا ما شب وتزوج عمد إلى اظهار إعجابه بأولئك الأبطال فنقل صورهم مكبرة على واجهة منزله أو نقشها بالوشم على جسمه أو رسمها بالألوان الزاهية على صندوق جهاز العروس حيث ترى أبا زيد وهو ذلولون أسود مجسما في شكل فارس مغوار يمتطي جوادا أعيلا ويمسك حساما يكاد حجمه يبلغ ضعف حجم الجواد وله شارب هائل قد يكون أقرب في شكله إلى حمار متحرك ، فإذا ما اكتملت رجولته أقبل في حماس على التردد على القهوة حيث يستمع إلى الشاعر الذي ينشد على الرباب سيرة أولئك الشجعان وكيف كانوا يصبرون الأيام والليالي الطوال في انتظار الفرصة للأخذ بثأرهم لانهج لهم عين ولا يغمض لهم جفن يأتون من ضروب التضحية ويتكبرون من مختلف أنواع الحيلة والحداع للإيقاع بقرمهم ما تشيب من حوله الولدان وكيف أن من كان يقتل له قتل كان يبق هو وكل عشيرته محلا للتعير والنشير إلى أن يروى ظمأه بالأخذ بثأره .

على أن الفلاح على الرغم من كل ما ذكرناه لا يعتبر مجرما خطرا على المجتمع وكما قال السير روبرت أندرسون ”أن الرجل الذي يقتل عدوه الشخصي لا يثير في قلب الغير خوفا ولا هلعاً“ كذلك الفلاح لا يلبث أن يزول عنه كابوس النار حتى يعود سعيدا بعيشة الهدوء والقناعة مرتاح الضمير إلى أنه إنما قام بواجب مقدس . ولقد ترى الفلاح الذي اعترف في التحقيق بجريمة القتل العمدا أخذا بثأره لا يطبق أن توجه إليه ولو شبهة أو تلميح بأنه لص أو محتال . فهو في نظر نفسه ليس سوى رجل متمم عادل . وقد يبدو غريبا اختلاف وجهتي النظر بين القاتل واللص ، فبينما نرى القاتل يحترق اللص ، نرى اللص يبدي اشتغازه من قاتل سفاك يريق الدماء .

ولقد لوحظ لى وضعت مسائل الانتقام للعرض أو شرف الأسرة ومسايل الأخذ بالنار جنباً إلى جنب، والواقع أن الفلاح — وبوجه خاص فلاح الوجه القلبي — شديد التأثر بهذا الدافع إلى حد بعيد، فهو بمقتضى قراء الفروسية وارجولة الحقة يعتبر أنه الشخص الوحيد المسئول عن حماية زوجته وجميع أفراد أسرته وبخاصة النساء منهم ولا يسمح بأن توجه حتى ولا ظال الإهانة إلى شرفه من هذه الناحية ولو ذاق في سبيل ذلك الموت، والمعدوف أن أقل شبهة تلقى على سير المرأة لا جزاء لها غير القتل . وكل فاة في الأسرة تعرف تماماً أن زلتها فيها فتأذيها المحقق . وما يروى في هذا الصدد أن خنيا من أهالى الصعيد بلغه أن أخته احترفت البغاء في بلدة بعيدة فاستقل أول قطار وذهب في البحث عنها إلى أن عثر عليها وأخذ في طعنها حتى أزهق روحها ثم وقف على جثتها شاهراً خنجره ينادى بنفسه: بطلا مقداماً صادق الوطنية .

وهناك إلى جانب النار والعرض أسباب أخرى للقتل اشتتاً، وهى مع أنها أقل أهمية إلا أنها لا تقل عنها ذيوياً وانشاراً، من ذلك التنافس على وظيفة العمدة أو شيخ الخفراء أو الخلاف على شؤون الرى أو البذر أو الزرع والحصاد أو النرض في وضع اليد أو ما إلى ذلك من خصومات عديدة تجتمع تحت عنوان ” الضغائن ” .

غير أن الفلاح قد عرف عنه في كثير من الأ-وال أنه يلجأ للقتل انتقاماً لأ-باب هى من التفاهة بحيث قد لا يحطر على البسال أن تكون كافية حتى لإثارة نقاش بسيط، وهناك أمثلة لا تحصى لجرائم قتل ارتكبها الفلاح لمجرد كون عترة جاره دخلت في زرعه أو لأن شخصا لم يرده عليه تحيته بمثلها أو لأنه أصر على أن يحصل على سداد دينه الضئيل في موعده أو لأنه اختلف على ثمن خسة أو حفلة أو عود من القصب أو لأنه نازعه ظل شجرة، ولم يكن القتل في مثل هذه الأحوال مرتكباً دائماً تحت عامل ثورة الغضب والاندفاع، بل أن كثيراً منها قد ارتكب بعد تأمل وتفكير هادئ فما السبب ؟ أعتقد أن التعليل الصحيح هو أن الفلاح يحكم ما هو فيه من عزلة فكرية عرصة لأن يفقد قدرته على وزن الأمور والحكم عليها حكماً صحيحاً فكما أن السجين الذى يقضى حياته بين جدران السجن لا يستطيع أن يطل منه على الكون المحيط به ليتعرف ما حوله معرض لأن يفقد حاسة قياس المسافات والأحجام، كذلك الفلاح يقضى طول يومه لا يشغل باله سوى خصومة تبدؤ في بادئ الأمر تافهة ولكنها لا تلبث أن تنمو وتتجسم أمام مخيلته حتى تصبح هائلة الحجم فهو يتدرج بفكره إلى تصوبر الاعتداء بأنه مضايقة فاستخفاف فعاكسة فتحقير فإهانة، وهذا يرى أن كرمته مهددة وأن شرفه يقتضى أن يبادر إلى الاقتصاد له كما يجب على الرجل أن يفعل .

وقبل أن أترك هذه النقطة يسرنى أن أشير إلى أن الفلاح سائر حثيثاً في طريقه إلى الأمام وأن وزارة الشؤون الاجتماعية التى قد أنشأت مصلحة خاصة بشؤون الفلاح تبذل

جهدا متواصلا بالتعاون فيما بينهما وبين باقي الوزارات وبخاصة وزارة الداخلية والصحة والمعارف لتحسين حال النلاج والنهوض بمستواه من كافة الوجوه وأنها قد بدأت تقطف ثمار تلك الجهود التي تركت أثرها بالفعل في حالة الأمن العام .

وأخيرا أرى لزاما على أن أضيف كلمة عن جرائم القتل التي ترتكب لدافع مادي ذير انتقامي فهي على الرغم من كونها أقل عددا إلا أن لها أهميتها وخطورها على الأمن فكثيرا ما يرتكب القتل لتسهيل جريمة سرقة أو مطو أو خطف أو للتخلص من مورت أو زوج غير مرغوب فيه ؛ على أن أكثرها ذيوغا على الاطلاق جناية القتل التي يرتكبها القاتل المأجور فهي على الرغم من أن الدافع الأساسي فيها هو الانتقام إلا أن القاتل الأجير ينظر إليها نظرتة إلى صفقة تجارية .

ثالثا — الوسائل : وما دمتا في صدد وسائل القتل يجب أن ننوه إلى هذه الوسيلة الهامة وهي تأجير الأشقياء محترفي القتل — (ويطلق عليها في عرف القرويين " الكراء ") قد زاد انتشارها — حتى في قضايا الأخذ بالثأر أو الانتقام للعرض ، بل لقد بلغت من الذبوع حدا جعل الناس يفترضونها كقضية مسلمة فكما ارتكبت جناية قتل لم يعرف فيها شخص الجاني فقد ترى المجني عليه أو أهله لا يهتمون خصمهم بأنه ارتكب القتل بنفسه ولكن بأنه قد استخدم آخر لارتكابه .

وقد يبدو مستغربا لأول وهلة أن يكل الفلاح أمر الانتقام لناره أو لشرفه وعرضه إلى شخص أجنبي عنه على خلاف ما قضت به التقاليد . ولكن الواقع أنه يعمد إلى ذلك لا عن خوف أو رهبة وإنما عن الرغبة الملحة في أن يصل إلى غرضه من الانتقام كاملا غير منقوص — ذلك أن القاتل المحترف ليس أحقق منه في الرماية وإصابة الهدف ، فحسب بل أن لديه سلاحا أكثر فتكا وكفاية ثم أنه يعد للجريمة خطة محكمة تمام الأحكام كما يعد دفاعا له ولصاحبه . وهو فوق ذلك يستطيع أن يرشى رجال الحفظ الذين يعرفهم كما يستطيع التخلص من شهود الرؤية الذين إن هم لم يعرفوه من قبل لا يستطيعون الاستعراف عليه غالبا أما إذا عرفوه فإنهم يتجمعون عن الشهادة خوفا على أنفسهم من بطشه وانتقامه . وهو في معظم الأحوال يتخذ نوعا من الاحتياط لا يأتيه عادة الجاني غير المحترف . ذلك أنه قبل أن يفتر هاربا بعد ارتكاب الجريمة يبقى على مكان الحادث نظرة أخيرة ليستوثق من أنه لم يترك وراءه أثرا يدل عليه . ثم هو إلى ذلك يحذق بمض الحيل التي يستطيع أن يفضل بها رجال البوليس — غير أنه يحسن بي قبل أن أتى على ذكرها أن أقدم لكم صورة سريعة من ذلك الشقي المأجور . فهو في أغلب الأحوال من البدو الذين اشتهروا بإجادة الرماية وإيقان الفروسية وهو غالبا من المشبهين الذين يعتبرون أشد خطرا حتى من الخارجيين من الليمانات ، ذلك أن المشبهه بحكم كونه غير خاضع لرقابة الب ليس يستطيع التجول ليلا ونهارا أينما شاء وهو ملم تمام الإمام بمقوقه وحرياته الدستورية التي تحمي شخصه ومسكنه حرص على ألا ينتهك

منها شيء . وليس جسمه حتماً ذا ضخامة أو قوة خارقة ، بل قد يكون على العكس ضئيل الجسم نحيف البدن غير أنه على أى حال شديد النشاط خفيف الحركة ماهر في إصابة الهدف وفي ركوب الخيل حاد البصر ثم أن له في أغلب الأحوال شاربا كبيرا إذا ما زال الشارب يعتبر عندهم أثرا من آثار البطولة القديمة ولقد عرفت منذ حوالي عشرين سنة أو أكثر شقيا يدعى مطراوى (ولم تكن معرفتي به وثيقة بطبيعة الحال) وكان ذكر اسمه كافيا لالقاء الرعب والفرع في قلوب سكان مديرية البخيرة ومع ذلك فقد كان يبدو لى من الضالة كما لو كان رجلا مريضا . ويوجد بين أولئك الأشقياء أناس أغنياء لهم حاشية من أتباع وأنصار وقد عرف عن معظمهم أنهم يفرضون الإناوات على الملاك والأعيان وحتى على شركات السيارات ، بل يقال إنهم يتقاضونها طبقا لتسعيرة معينة بحيث يرتفع أرباحهم تكاب الحماية كلما زاد اتقانها فالشقي يتناول مثلا عشرة جنيهات في نظير قتل " كامل " لا يستطيع المجنى عليه فيه أن ينطق بكلمة قبل موته وخمسة جنيهات إذا كانت الرماية أبل إحكاما والغريب أن لدى هؤلاء الأشقياء فكرة عن الخاصة عن الشهامة المروءة — فلقد روى عن أحدهم أنه لما طالب عميله بالأجر سلفا — شكاه سوء حاله ففرق له وقال إنه سيقتل غريمه دون أجر ولو روجه الله !

أما طريقهم في القتل فتتلخص في أن القاتل الأجير يزور بلدة المجنى عليه وهناك يدرس أحواله وعاداته ثم يفحص مكان الحادث ويرسم الخطة له ، بل قد يقوم بعمل تجربة للجريمة أو قد يسجل بطريقة رسمية دفاعه وذلك بأن يبلغ مثلا نقطة بوليس بعيدة عن حصول حادث مختلق ليثبت وجوده في مكان بعيد . ومن أهم الحيل التي يلجأون إليها حملة شهيرة قد يكون فيها الذليل الوحيد لظاهرة غريبة في الإحصاء لم يكن يمكن تفسيرها بدونها تلك الظاهرة هي أن جنايات القتل تكثر حيث يقل عدد الأشقياء وتقل حيث يزداد عددهم أما الحيلة فهي أنهم يقومون بقتل غريمهم بعيدا عن بلدهم فيستدرجونه إلى مكان بعيد متحطين أحد الأعداء المغرية . وهناك يصبح كل من القاتل والقتيل غرباء غير معروفين . ويكاد يكون من المحقق أن يكتفى بتحقيق مقتضب قصير وأن تنتهى القضية بالفشل . وهناك حيلة أخرى تتلخص في قتل غريمهم على الحدود الفاصلة بين بلدين أو مركزين أو مدينتين . فلقد أدرك الأشقياء الطريقة التي يتبعها البوليس الرينى أحيانا لضبط الجنايات وعامتهم التجارب أنه كلما كان الاختصاص محل نزاع بين جهتين رجع جدا أن يحدث خلاف كبير على الاختصاص يقوم فيه الطرفان بتطبيق الخرائط ومقارنة الرسوم لتقديم الدليل على عدم الاختصاص . ولقد حدث مرة أن أحد مشايخ البلد شاهده أهل القتل يحمل اللجنة على كتفه ويلقيها إلى الناحية الأخرى من مجرى مياه على الحدود بين مركزين نشأ عن ذلك عراك كبير ثم شرع في التحقيق الذى دار حول تحديد الاختصاص وعلى حادث الشجار مع شيخ البلد بينما لم تستطع اللجنة المسكية إلا الانتظار ولقد اعتاد القنلة المحترفون

أن يتغلبوا هذا النقص الذي يسرنى أن أقوله إنه أخذ يتضاءل. وهناك في جهة ما ببلاد الوجه البحرى نقطة تلتقى عندها ثلاث مديريات وخمس مراكز كانت في وقت ما تعتبر جنة للسفارين. ولحسن الحظ أن عدد أولئك القتلة قد أخذ يتناقص في السنوات الأخيرة بسبب الإجراءات العسكرية المتخذة لترحيلهم إلى معتقل خاص طول مدة الحرب وقد كان هذا الإجراء سببا في هبوط أرقام الجنايات وبخاصة القتل .

أما الوسيلة الثانية للقتل فهى السلاح المستعمل ولا شك أن أخطر أسلحة القتل وأكثرها انتشارا هو السلاح النارى، صحيح أن هناك أنواعا أخرى عديدة تسمى الأسلحة البيضاء كالسكين والبلطة والخنجر وهناك السلاح الأصفر وهو الزرنينج الذى يستعمله النساء عادة في قتل أزواجهن . إلا أن السلاح النارى بأنواعه هو أهم أسلحة القتل بلا نزاع إذ يتدر أن تقل نسبة استعماله عن ٧٠٪ من مجموع جنايات القتل ومن أهم أنواعه البندقية الخرطوش عيار ١٢ و ١٦ وكذلك الفرد والجوز ، أما المقروطة أى البندقية المقصوص جزء من ماسورتها فلها منزلة خاصة هى أنها من الطول بحيث تساعد على إتقان إصابة الهدف ومن القصر بحيث يسهل إخفاؤها تحت الرداء الخارجى (أو الجلابة) ولا أظن أن هناك فلاحا واحدا — سواء أكان مجرما أم غير مجرم — لا يحتفظ ببندقية أو فرد واحد على الأقل للدفاع عن نفسه فيخفيها باعتناء ويحوص عليها كل الحرص كما اعتقد أن ما يضبطه البوليس سنويا من السلاح النارى ويبلغ في المتوسط تسعة آلاف قطعة لا يكون إلا نسبة ضئيلة مما هو فى أيدى الفلاحين بالقلل وإن من المدهش حقا مرمرة قدرة الفلاحين على إخفاء أسلحتهم النارية ثم إظهارها في طرفة عين بينما قد يقضى البوليس الساعات الطوال في البحث عنها على غير طائل — قد حدث في إحدى القضايا أن بلدين جرت بينهما معركة كبيرة أطلنت فيها مئات من الأعيمة ولم يفلح البوليس في العثور على سلاح واحد ولكنه عقب انصرافه عادت المعركة إلى شتتها بالأسلحة ذاتها — وفي حادث آخر أطلقت أعيرة كثيرة جدا وأصيب وقتل كثيرون فلم يثر البوليس إلا على سيف وبندقية. ثبت أنها غير مستعملة من زمن طويل .

والفلاح يفضل السلاح النارى لحكمة ظاهرة هى أنه يستطيع استعماله وهو في مكانه دون أن يتماكب مع الجنى عليه أو يعرض نفسه لرؤيته أما عيبه الأساسى وهو صوت الطلق فقد أضاع قيمته عادة منتشرة بين الفلاحين هى إطلاق أعيرة الملقاة أى التى تطلق في الليل بقصد إرهاب الوحوش أو اللصوص فتند تترن على كثرة استعمالها أن صوت الأعيرة لئلا أصبح لا يكاد ينفث النار ، ولقد حدث أن سألت خفيرا كان دركا على مسافة قريبة من مكان جثة القتيل لما إذا لم يذهب على صوت العيار فأجاب بأنه اعتقد أنه عيار ملقه لأنه لم يعبه صوت استغاثة أو أنين .

محمد البالي

مدير كلية البوليس الملكية